**المحاضرة السابعة**

**جداريات السيراميك البابلية: قوس النصر البابلي بوابة عشتار**

حين ننظر إلى مدينة بابل من بعيد، تظهر كأنها محاطة بالحصون. غير أن ما نبصرهُ، هو أبواب لا أسوار. وأروع ما قدّمه العراقيون من إبداعات كبيرة وأصيلة للبشرية كلها. كانت بوابة عشتار (قوس النصر البابلي) المدخل الشمالي لمدينة بابل، حاضرة الشرق، وعاصمة العلوم والفنون. ومنها تنطلق الجيوش البابلية المظفّرة، بعد أن تجتاز شارع الموكب. كما تتجمع عندها جماهير المحتفلين بأعياد الربيع، لتكمل مسيرتها إلى معبد (أكيتو) حيث تمثل وقائع قصة الخليقة البابلية.

تمثل بوابة "عشتار" من اهم المنجزات الفنية وأكثرها شهرة، والرمز الأقوى للبهاء والروعة التي كانت عليها بابل القديمة والتي قال عنها الأثاري الألماني روبرت كولدواي بعد اكتشافها عام 1902 إنها تشكل الأثر الأكبر، والأكثر لفتا للانتباه من بين آثار بابل.

"بوابة عشتار" هي البوابة الثامنة لمدينة بابل الداخلية التي شيدها نبوخذ نصر عام 575 ق.م شمالي المدينة، وأهداها إلى "عشتار" إلهة الحب والحرب، كما تشير كتابة تذكارية مسجلة في أحد جوانبها. ، وهي ازاحت الفواصل التي صنفت اجناس الفنون التشكيلية الى أنواع اذ انها مزجت العمارة بالنحت والرسم والخزف. يبلغ ارتفاع البوابة مع أبراجها حوالي 50 مترا، وعرضها 8 أمتار، أما البرجان البارزان على جانبي المدخل فعرض كل منهما حوالي 14 مترا، وهي بنيت من اللِبن ومكسوة بكاملها بآجر مزجج أزرق اللون، وزينت على سطح الجدار بصفوف افقية بـ 575 شكلا حيوانيا بارزا منها التنين الخرافي، والعجول، والأسود، مثلت بوضعيه السير، وهي رموز لاشهر الالهة البابلية.

كشفت الحفريات الألمانية ان بوابة عشتار عبارة عن بوابة مزدوجة تتالف من بوابتين الواحدة بعد الأخرى، لكل منهما باب خارجي واخر داخلي يربط بينهما جدار قصير من الطابوق الأحمر اللون، جعل منهما بنائية واحدة.

يتكون هذا البناء الأسطوري، من مدخل مقوس، ومحاط من الجانبين ببرجين ضخمين. وبغية تحريك صمت التكوين المعماري، فقد زُين التكوين المعماري من الأعلى، بصف مما يشبه أشكال الأهرام المدرجة الصغيرة الحجوم. وغلف المشهد كله بطبقة من اللون الفيروزي، ولم يتم اختيار الألوان عن طريق الصدفة، بل آثر البابليون على تفعيل الطاقة الرمزية القدسية لهذا اللون، بغية طرد الأخطار والأرواح الشريرة عن المدينة. وإزاء تغييب محاكاة الطبيعة، وجد المبدع البابلي أن بإمكانهِ قلب سمات العوالم الخارجية، باتجاه انطباعاتهِ الذاتية. ومن هنا كانت دلالة اللون إيحائية أكثر منها مشابهة للتجربة الخارجية، وهي فكرة تقود نحو التبسيط في المساحات اللونية، والالتصاق بالتسطيح، والتخلي عن التدرجات اللونية، وصولاً إلى استقلالية اللون. ويجتاز سطح البوابة الفيروزي، نوع من (القواطعية)، حيث تتخلله شبكة الأشرطة الصفراء اللون، لتعمل على تجزئة وجه الشاشة التشكيلية. فهو يشترك مع الخطوط في تحديد المساحات اللونية في أشكال أنيقة وصافية، وألوان هادئة، وتأليف ساكن. وذلك بمثابة نداء نحو المجهول والعالم التخيلي. يدور داخل الأشرطة التصويرية التي تؤطر مدخل البوابة المقوس وبرجيها من الأعلى والاسفل شكل زهرة الربيع البرية التي صورت بفروع بيضاء اللون ونقطة مركزية صفراء، احالها الفنان الى شكل رمزي تكرر الف مرة على سطح البوابة، وهو نوع من الفعل السحري لتفعيل ظاهرة الخصب في الطبيعة وتجدد الحياة، فكان تكرار المفردات الزخرفية اريد منها تأكيد معنى التناسل بدلالتها المتحركة في الفكر الاجتماعي وترتبط بمضامين وفرة المحاصيل الزراعية وكثرة سقوط الامطار وديمومة حياة الانسان وبكل ما يعنيه الربيع من دلاله. وتحتفظ بوابة عشتار في الفكر البابلي، بشفرة التقديس والتبجيل، ذلك أنه دلالة الآلهة قد حَلّت بها حلولاً، فتسامت من اعتباراتها المادية، نحو مقام القدسية. ويتجلى ذلك بنوع من التضايف بين النسق المعماري، والأنساق التشكيلية في بنية واحدة. حيث تتحرك على سطوح البوابة العظيمة، صفوف افقية من أشكال الأسود رمز العالم السفلي عالم ما بعد الموت ورمز الالهة عشتار عندما تطأ واحدة منها بقدمها. لونت بالابيض ولبدها ذهبية. اما اشكال العجول رمز الحياة وصديقة الانسان، وهي أيضا (رمز الأله أدد) عند البابليين إله الزوابع والأمطار، كانت أشكال العجول في مسيرتها الأسطورية، التي لا تحدها حدود الأزمنة والأمكنة. أشكالاً رمزية من طبيعة عليا، فهي فاعلة بفعل شارة القوة المتخفية فيها. وكأن الفكر البابلي قد عامل المفاهيم وكأنها كائنات مقدسة. مثلت العجول بحجوم تفوق الحجم الطبيعي ولونت بالبرتقالي الذي تشوبه بقع من اللونين الأحمر والأخضر، وقرونها وحوافرها خضراء، ورؤوس ذيولها ولبد شعرها ازرق اللون. اما أشكال التنين (المشخوش) وهو الحيوان الخرافي رمز الإله مردوخ إله بابل الرئيس. وحين خرج الإله (مردوخ) فأنه أنتقل من الوجود المجرد إلى الفعل، ليمتطي (تنينهُ) المشهور، ويبادر في خلق العالم. ويتكون التنين من جسم يشبه جسم الكلب مكسو بحراشف الأسماك، ورقبة زرافة، ورأس أفعى، وأقدام أمامية لأسد، بينما اقدامه الخلفية لطير جارح، وله ذيل طويل. فمثل هذه (الصور) السريالية، قد أحالت المفهوم إلى رمز. لونت أشكال الأتنة بلون برتقالي مائل للاخضرار، وقرونها وألسنتها الطويلة وظهورها المقوسة ومخالبها، طليت باللون الأصفر. فعلى سطح البوابة اللازوردي الجميل، رُصفت منظومة هذه الحيوانات الرمزية لاقوى الللهة البابلية بثلاثة عشر صفاً، ليصل عددها إلى (575) مفردة رمزية. نحتت من الطين باستعمال القالب، ولصقت على قطع اللبن ثم فخرت مع اللبن الذي تحول الى آجر، ومن ثم لونت الأرضية بالازرق، بينما تم اختيار الوان أخرى لاجسام الحيوانات، ثم اعيدت لتحرق في الافران مرة ثانية وبدرجات حرارة عالية. ولنا أن نتصور عدد الأيدي العاملة الهائل، والجهود الكبيرة التي أنجزت هذا الصرح الخالد. فقد تطلب العمل بناء الهيكل من الطابوق، ومن ثم تكسيتهِ بطبقة من الطابوق المزجج والذي يحمل معالم هذه الأشكال. حيث ينحت سطح كل طابوقة على إنفراد، ومن ثم تُجمع لتكون بنية الأشكال الكلية. فقد بحث الفنان البابلي عن خطوط القوة والبناء في تشييد أشكالهِ، فوقفت متماسكة، كما لو كانت تخضع لقانون جاذبية خاص بها. فقد أبدع مناخاً لونياً تَخفّت فيه الدلالة وراء الإيقاع.

تم ترقيم قطع اللبن من الصفر الى المليار ثم أدخلت الى الكور الكبيرة الحجوم التي كانت تعمل في زمن واحد وذلك الفعل يحتاج الى المئات من الحرفيين المتخصصين بعملية الحرق والسيطرة على درجات الحرارة ربما تطل الاف من الاطنان من الوقود. وبعد ان تحولت الى فخار كان دور الخزافين تحضير خلطات من الزجاج على وفق مواصفات علمية ورش سطوح الاشكال بمادة التزجيج وبعدها تثبت القطع من قبل العشرات من الخزافين والمعماريين بنفس نظام الترقيم، وهذا الهدير الداخلي في أنسجة تكوينهِ، هو الذي جعل من بوابة عشتار، أعظم رائعة فنية، في تاريخ فن الخزف، والعمارة أيضاً.